الحدث

خليل حرب
khalilharb66@gmail.com

حرب بلا حدود جغرافيّة: طائرات إسرائيل وصواريخ إيران

لعلها الحرب الاولى من نوعها بين طرفين لا تربطهما حدود جغرافية ويشن كل طرف هجمات متنوعة على اراضي الطرف الاخر. الحرب التي شنتها اسرائيل على ايران، استدرجت تدخلا عسكريا اميركيا، ورودا إيرانية صاروخية على قاعدة العديد الاميركية في قطر. المعركة معقدة، وكذلك قدرات طهران وتل ابيب

نعمة ونقمة. هكذا يمكن اختصار ظروف الصراع، ومعادلات الاشتباك الاسرائيلي-الايراني الذي استمر 12 يوما، سواء فيما يتعلق بالمسافة الجغرافية بينهما، ومساحة كل دولة، وديموغرافيتها، وامكاناتها العسكرية المتفاوتة والمتشابكة، وارتباطات كل دولة منهما، بتحالفات وتوازنات مغايرة.

لكن الكثير من جوانب المشهد ربما يكمن فيما قاله الرئيس الاميركي دونالد ترامب في الايام الاولى من بداية العدوان الاسرائيلي، فعندما تحدث عن رئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو قال له "keep going" حاثا اياه على الاستمرار في الحرب، وعندما تحدث عن مرشد الجمهورية الايرانية السيد علي خامنئي الرافض لـ"الاستسلام" واحتمال تعرضه للاغتيال، قال "good luck" متمنيا له "حظا طيبا".

وتحمل المعاني الابعد لمثل هذه التصريحات دلالات اساسية: ترامب انحاز بالكامل الى حرب نتنياهو واهدافه منها وحاول في الوقت نفسه الاستفادة من الضغط العسكري، لانتزاع تنازلات سياسية ونووية من طهران، وهو ايضاتحول الى اكثر من ناطق عسكري باسم الحرب الاسرائيلية وشارك في الحرب النفسية التي شنت على الايرانيين وقيادتهم، حيث امر فجر 22 حزيران، بتدمير منشآت نووية ايرانية في نطنز وفوردو واصفهان، ثم دعا ايران الى "السلام"!

اما اعلان نتنياهو في اليوم السادس من الحرب في بيان متلفز، فهو يختصر الكثير وخصوصاباستدراجه واشنطن الى الحرب بشكل مباشر، اذ قال "اود ان اشكر الرئيس ترامب، الصديق العظيم لاسرائيل، على وقوفه الى جانبنا". وقد ردت ايران بقصف صاروخي على قاعدة العديد الاميركية في قطر، مرفقة ذلك برسالتين متوازيتين: اميركا هي التي اعتدت اولا؛ وثانيا ان اي اعتداء على ايران سيتم الرد عليه. وبعدها بساعات اعلن ترامب "تهانينا للعالم لقد حان وقت السلام، وربما تمضي ايران قدما نحو السلام والوئام في المنطقة وسأشجع اسرائيل بحماس على ان تحذو حذوها".

لكن نتنياهو الذي كان اعلن قبل ذلك بقليل، ان العمليات العسكرية الاسرائيلية ضد ايران ستنتهي "عندما نستكمل اهدافها"، وعاد وقال لاحقا انه وافق على وقف اطلاق النار بعد "مشاورات" اجراها مع ترامب. ولعبت قطر دورا رئيسيا في التوصل الى وقف اطلاق النار، وقالت "رويترز" ان ترامب طلب من الدوحة اقناع ايران بالموافقة عليها بعدما حصل الرئيس الاميركي من جهته، على موافقة اسرائيل عليها.

ومثلما ان ايران تعرضت لضربة مباغتة ومؤذية في اليوم الاول من العدوان، فان نشوة الضربة الاسرائيلية الاولى في 13 حزيران، راحت تتبدد، حيث اظهرت الايام التالية سريعا امكانية اختراق طبقات الدفاعات الجوية لاسرائيل التي بدت جبهتها الداخلية كفريسة سهلة نسبيا للصواريخ الايرانية، وخلال الايام ال12 من الحرب، عاشت مدينة تل ابيب ومنطقة غوش دان الواسعة التي تعتبر قلب اسرائيل الاستراتيجي، دمارا لم تعهده منذ نشأتها، وهو بالتأكيد سيثير غدا، في اليوم التالي للحرب المزيد من التساؤل والانتقادات من جانب الاسرائيليين لنتنياهو لانه اخطأ في تقدير حساباته السياسية والعسكرية مجددا حيث لم يأخذ بالاعتبار بشكل دقيق امكانات ايران

اغتيال "المرشد"

ان يهدد الاسرائيليون باغتيال مرشد الجمهورية السيد علي خامنئي، قد يكون متوقعا، ويعكس نية اسرائيل ضرب القيادة العليا في طهران من اجل اسقاط النظام وتعميم الفوضى وفرض الاستسلام على الايرانيين اضافة الى اضعاف روحهم المعنوية في الحرب، باظهار قائدهم الاعلى مجرد هدف سهل ممكن النيل منه. والغريب ان الرئيس الاميركي دونالد ترامب بدا كمن يتبنى امكان وقوع هذه الجريمة حتى قبل ارتكابها اسرائيليا، او حتى امكان ان تقوم واشنطن بذلك بنفسها، عندما قال في 17 حزيران "اننا نعرف تماما اين يختبئ المرشد الاعلى في ايران، وهو هدف سهل ولن نقضي عليه على الاقل في الوقت الحالي". لكن اغتيال المرشد، او محاولة القيام بذلك، كان من الممكن ان يصبح نقطة تحول كبيرة في مسار الصراع، لا في ايران وحدها، بالنظر ليس فقط الى الاهمية السياسية للمرشد الاعلى، وانما ايضا بالنظر الى رمزيته الدينية عند ملايين المسلمين.

وقدرتها على الحاق كل هذا الاذى بالجبهة الداخلية.

وكان التقدير السائد خلال العقود الماضية، ان المسافة الجغرافية الفاصلة بين الدولتين، تحول دون اندلاع حرب مباشرة بينهما، والاكتفاء بعمليات الحروب السيبرانية والتجسس والنشاطات السرية والاغتيالات. لكن الطرفين راكما على مر السنين الماضية، القدرات

والامكانات التي تتيح لهما الاشتباك المباشر وصولا الى هذه اللحظة.

واظهرت هذه الحرب مفارقات وتعقيدات هذه المسافة الجغرافية، وايضا تحدي المساحة الجغرافية. ويقدر خبراء ان مساحة ايران الهائلة (اكثر من 1.6 مليون كلم2) هي بمثابة نعمة ولعنةفي الوقت نفسه. لعنة لان ايران تحتاج الى مجهود يكاد يكون مستحيلا وبكلفة غير مقدرة بحجمها، لحماية اجوائها بالكامل من خلال انظمة الدفاع الجوي وبطاريات الصواريخ المتعددة المهام، لمواجهة عدة انواع من المخاطر الجوية:

-توغل وهجمات المقاتلات الجوية؛

-مهمات الطائرات المسيرة؛

-التصدي للصواريخ المطلقة على المدن والمواقع حتى من خارج الاراضي الايرانية.

من الواضح ان اسرائيل استغلت عامل اتساع المساحة الجغرافية هذه لخرق الاجواء الايرانية بسهولة اكبر وتنفيذ غارات وضربات واغتيالات من الجو.

في المقابل، فان النعمة تتمثل بالنسبة الى ايرانان مساحتها الجغرافية الهائلة تضع اسرائيل - او غيرها- امام ما يشبه الاستحالة في ضرب كل مناطقها وفرض سيطرة عسكرية عليها شاملة ولو من الجو، خصوصا ايضا بسبب تضاريسها المتنوعة والصعبة، اذ تتشكل من سلاسل جبلية وعرة تحيط بأحواض داخلية مرتفعة بينما تقسم سلسلة جبال زاغروس الشاهقة البلاد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في حين تمتد الصحراء القاحلة في الشرق.

من مكامن قوة ايران ايضا، ان تطويقها ومحاصرتها في اي حرب واسعة، هو غير ممكن عسكريا ايضا، حيث ان لها حدود مشتركة مع العراق وتركيا في الغرب، ومع ارمينيا واذربيجان وتركمانستان من الشمال مع اطلالة على بحر قزوين، وفي الشرق مع افغانستان وباكستان. كما ان لها حدود بحرية مع الخليج بدوله العربية الست.

بالنسبة الى اسرائيل، فانها اصغر مساحة بكثير، وهي ايضا نعمة ولعنة في الوقت نفسه. صغر مساحتها يتيح لها تغطية اجوائها بفعالية اكبر من ايران، حيث ان لديها 5 طبقات معروفة ◄

◄ من انظمة الدفاع الجوي الصاروخي: نظام "ارو - 3" (السهم) القادر على اعتراض الصواريخ الباليستية في الفضاء، بينما يعمل "ارو - 2" على ارتفاعات اقل، وهناك ايضا نظام "مقلاع داود" متوسط المدى للتصدي للصواريخ الباليستية وصواريخ كروز، بينما يتصدى نظام "القبة الحديدية" اساسا للصواريخ وقذائف الهاون من مسافات قريبة، وبالامكان استخدامه في التصدي للصواريخ التي تتخطى منظومتي "ارو" و"مقلاع دادو". وانضم الى شبكة التصدي هذه، منظومة "ثاد" الاميركية القادرة على التصدي للصواريخ الباليستية، وبامكانه العمل الى جانب انظمة "باتريوت" التي لدى اسرائيل منها.

اغلقت اسرائيل الثغرة الكبيرة التي كانت تعاني منها فيما يتعلق بالقيام بعمليات جوية بعيدة جغرافيا عن اراضي الكيان، حيث طورت سلاحها الجوي وعززت قدرة قاذفاتها على التحليق لمسافات اطول، وزادت في الوقت نفسه عديد طائرات التزود بالوقود بما في ذلك استحواذها على 8 طائرات "بوينغ كيه سي- 46 اي" المخصصة لعمليات التزود الجوي بالوقود، ما سمح لها بتنفيذ الضربة الغادرة على ايران في اليوم الاول بأسراب من عشرات الطائرات دفعة واحدة. كما من المعتقد، بحسب ما نشرت شبكة "سي ان ان" الاميركية ان سلاح الجو الاميركي وفر لاسرائيل عددا غير محدد من طائرات التزود بالوقود والتي انطلقت من قواعد اميركية متعددة في انحاء المنطقة لمساعدة الطائرات الاسرائيلية على قطاع مسافات تتعدى الفي كيلومتر، اضافة الى ساعات التحليق والاشتباك في الاجواء الايرانية والعودة الى قواعدها في الكيان الاسرائيلي.

من دون توفير هذه الامكانية والقدرات، ما كان يمكن للهجمة الاسرائيلية ان تحقق الكثير من مبتغاها ولا نجاحاتها ولا الفرصة للمضي قدمافي الحملة العسكرية لايام عديدة، والاهم، لن يكون في امكان الطيارين الاسرائيليين العودة الى قواعدهم سالمين.

اما ايران، فقد بدت كانها اعدت عدتها من اجل ايام مواجهة كهذه، وانما صاروخيا بشكل محدد، حيث تبين ان ترسانتها الصاروخية هي ذراعها العسكري الاهم الذي تعتمد عليه في ردع العدوان، من خلال الضغط على الجبهة الداخلية لاسرائيل والحاق الاذى بها، وضرب القواعد والمراكز العسكرية (والامنية والاقتصادية)، بما في ذلك قواعد نيفاتيم وحتسريم والتي تنطلق منها المقاتلات الاسرائيلية.

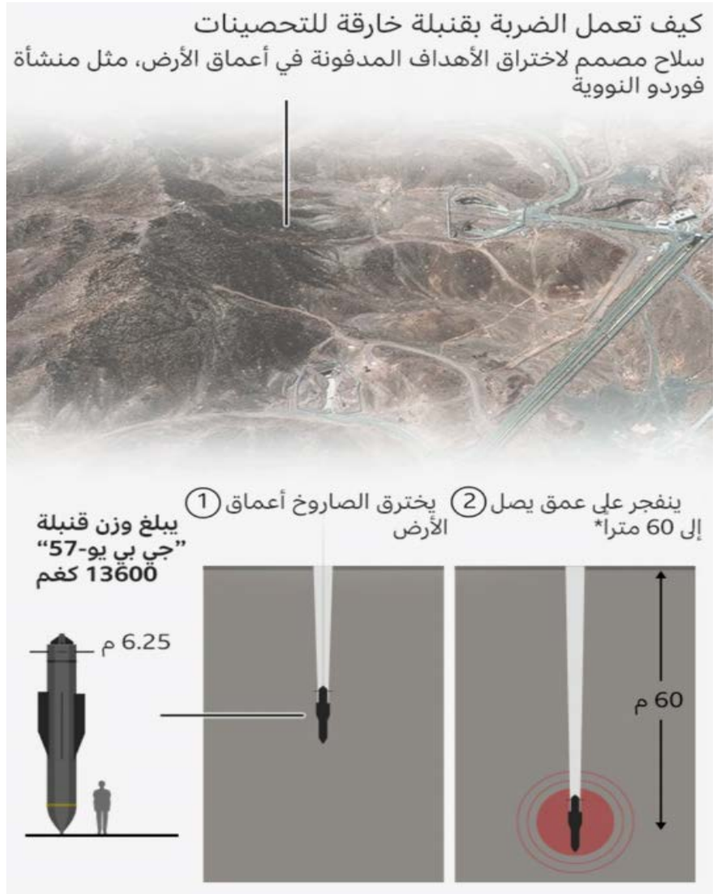

الحرب ان طالت

رغم التسريبات الاسرائيلية المتعمدة حول وجود ما يشبه الاجماع داخل اسرائيل على تاييد حرب نتنياهو على ايران، الا ان هذا الدعم الداخلي ماكان له ان يستمر فيما لو ان الحرب استطالت وتمكنت ايران من الحاق دمار مؤثر في الجبهة الداخلية، خصوصا ان التاييد الداخلي جاء مدفوعا بنشوة الضربة الاولى في 13 حزيران، وهو ما بدا يتلاشى مع اصابة العمق الاسرائيلي في الصميم. من اجل تجنب تفاقم هذا التبدل السريع في الراي العام، بعدما انتشرت مشاهد وصور كثيرة ملتقطة من جانب الاسرائيليين انفسهم (ووسائل اعلام وحسابات على مواقع التواصل الاجتماعي) في الايام الاولى من العدوان الاسرائيلي، تحركت الرقابة العسكرية بتعليمات من القيادة السياسية، لمحاولة فرض تعتيم اسرائيلي معتاد، وانما مشدد، لحجب صورة مايجري فعليا وما يلحق باسرائيل من خسائر واصابات.

وتتباين تقديرات الخبراء حول تداعيات للحرب، وهناك من يقول انه حتى لو تعرضت ايران للهزيمة باي شكل، الا ستظل قادرة على البقاء كدولة وربما كنظام، بينما في المقابل، تبدو اسرائيل غير قادرة على تحمل تداعيات الهزيمة، ككيان ونظام، خصوصا بعد كل ما جرى خلال العامين الماضيين، ولان الهزيمة قد تعني انكسارا للمشروع الذي بني عليه الكيان منذ اكثر من 70 سنة، باعتباره قاعدة عسكرية متقدمة للغرب في قلب المنطقة، وباعتباره دولة امنة ومحمية ومستقرة لليهود من كل الشتات حول العالم.

من اسباب تحول موقف نتنياهو في الساعات الاخيرة قبل الهدنة، انه يدرك ان اسرائيل ايضاليس بمقدورها التعايش مع حرب استنزاف طويلة، وهي، بخلاف الايرانيين الذين عايشوا هذه التجربة القاسية وخبروها خلال حرب الاعوام الثمانية مع نظام صدام حسين في الثمانينات، ومن عقود من العقوبات الغربية ومحاولات التطويق والاستنزاف والقيود الخارجية والمخاطر الحدودية المتعددة، من باكستان وافغانستان شرقا، الى العراق غربا، وعلى شواطئ الخليج جنوبا.

في الوقت نفسه، فان ايران لم تستخدم كل منظوماتها الصاروخية المتنوعة. وهذا سيناريو الرعب الحقيقي بالنسبة إلى إسرائيل حيث تواجه خليطا متعددا من الصليات الصاروخية ذات المديات والاوزان والقدرات المتنوعة، بما فيهاالفرط صوتية. وقد اكد خبراء ان ايران استخدمت في الايام الاولى من ردودها على إسرائيل الكثير من صواريخ مخزونها القديم من الصواريخ الموجودة في ترسانتها، مثل "عماد" و"قدر" و"خيبر شكن" الباليستية متوسطة المدى، ولم تستخدم من صواريخها المتطورة والاكثر قوة، سوى عدد قليل جدا، بعد انقضاء اول اسبوع من الحرب. وبالاجمال، تحدثت اسرائيل عن تعرضهافي الايام الـ7 الاولى من الحرب، الى نحو 520 صاروخا وعدد مماثل تقريبا من الطائرات المسيرة، وهو رقم ضئيل جدا بالنظر الى المخزون الهائل الذي راكمته ايران طوال العقود الثلاثة الماضية والمقدر بعشرات الالاف الصواريخ على الاقل، والتي تحظى اغلبيتها بتحصينات في الجبال، وتحمل رؤوسا متفجرة بقوة مئات الكيلوغرامات.

دخلت صواريخ "فتاح" الايرانية الفرط صوتية الحرب في اليوم الخامس، باعلان من الحرس الثوري في اطار "عملية الوعد الصادق 3"، ولم تتمكن انظمة الدفاع الاسرائيلية من اعتراضها بعدما قطعت المسافة من ايران الى اسرائيل بسرعة 2 كلم في الثانية الواحدة، وبنحو 10 دقائق فقط. وكرت سبحة الصواريخ الفرط الصوتية، ثم جرى استخدام صواريخ "خرمشهر" (وزنها 2 طن) الذي قال الاسرائيليون انه يحتوي على رأس حربي متشظ، يضم 26 صاروخا صغيرا، ما يصعب من احتمالية التصدي له، ويلحق خسائر جسيمة على مساحة واسعة.

تضم الترسانة الصاروخية لايران، صواريخ الكروز السريعة، وصواريخ "خيبر" التابعة لمنظومة خرمشهر" والتي يصل مداها الى 2000 كلم، وصواريخ "قاسم" الباليستية، ومنظومة "ذو الفقار" المخصصة لمهاجمة السفن، وصواريخ "سجيل" بمدى 2500 كلم. هددت قيادات عسكرية ايرانية مرارا بانها قد تلجا الى استخدام صواريخ من الجيل الرابع، لم تستعملها حتى الان.

وهكذا تبدو معادلة الاشتباك الاسرائيلي-الايراني كأنها ترتكز على القوة الصاروخية الايرانية، مقابل سلاح الجو الاسرائيلي الذي يعتقد انه يملك حوالى 340 طائرة قتالية، و612 طائرة مختلفة، بينها "اف - 15" و"اف - 16" القادرة على قطع مسافات طويلة، اضافة الى طائرات "اف - 35" المتطورة المفترض ان لها قدرات شبحية. استفادت اسرائيل بالتأكيد من خطوط الامداد المفتوحة الاتية من الغرب، وتحديدا من الولايات المتحدة والمانيا وبريطانيا، ومن الاستباحة الاسرائيلية السهلة لاجواء سوريا ولبنان والاردن والعراق، للاستمرار في حربها واعادة التزود بالوقود. كما ان الكيان الاسرائيلي يستفيد من ميزانية عسكرية هي الاكبر في تاريخه للعام 2025، حيث خصص لها نحو 30 مليار دولار، مقابل نحو 8 مليارات دولار فقط للمؤسسات العسكرية والحرس الثوري في ايران.

لم تؤكد الوكالة الدولية للطاقة الذرية امتلاك ايران السلاح النووي (وان اثارت، بشكل مريب، الشكوك حول ممارساتها في اهداف التخصيب وكميته)، لكن المؤكد ان اسرائيل تمتلك، بحسب مايقول "معهد ستوكهولم لابحاث السلام"، نحو 80 راسا نوويا.

هذه من مفارقات هذه الحرب واهدافها، في ان دولة نووية غير منضمة الى معاهدة حظر الانتشار النووي، وتتكتم على ترسانتها النووية وبرامجها للتسلح النووي المحظور، هي من تهاجم دولة اخرى، بذريعة منعها من امتلاك سلاح نووي.